الجزء الخامس

# خليل مطران

## شاعر القرن العشرين

للدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

### العصر والرجل

﴿ توطئة ﴾ قلنا ان العصر الذي نشأ فيه خليل مطران كان عصر تحوّل في تاريخ المشرق. ومن هنا كان هذا العصر يسمح للعبقريات ان تظهر وللعقول ان تبدو على حقيقتها وقد أخذ العصر الذي تراكم على أذهان أهل المشرق ينجلي تحت تأثير مدنية الغرب الجارفة. ولا شك ان طبيعة الخليل الفنية من حيث كانت تتخذ من العالم الخارجي ما تنبض به من صور الحياة على الفكرات والخلجات التي تساوره، كانت تتنوّع بطبيعة عصره المتقلقة، التي كانت حافلة بصور الحياة وألوان الإحساس. وهكذا كان عصر الخليل صالحاً أيما صلاح لظهور خليل مطران برسالته الشعرية الإبداعية. ومما لا ريبة فيه ان الناحية الشاعرية عند الخليل تطغى على بقية نواحيه. وشاعريته وان وجدت من العصر ما يساعدها على التضوج، فان الرجل لم يكن ليجد من العصر ما ينضج شخصيته ويجعله أهلاً لدخول معترك الحياة. ولا ريبة ان لطبيعته الفنية أثراً في هذا النكوص الذي كان من أسباب خمول ذكر الخليل في عصره

على أننا حين نتكلم عن هذا الخمول، فإنما نتكلم عن حقيقة لا يتنازع في شأنها. فالرجل خامل الذكر، لان ذكره على الوجه الذي هو عليه من عصر، أضعف من ان يتسق مع خصائص شاعريته، التي لو وجدت في واحد من الذين ينتهزون الفرص ويحسنون خوض معارك الحياة، لبلغ من ذيوع ذكره وشيوع شعره مبلغاً لا يدانيه أحد من معاصري الخليل. على ان هنالك بعد ذلك حالات فردية، لا تناقض ما تلبسها من الأثواب، الحالة العامة.

---

(١) أبو شادي — قطر من يراع في الادب والاجتماع. ج ٢ ص ٣٣

نفس من الأدباء بفكرة شاعرية الخليل التي لا تجارى من ناحية الخيال والتصوير الشعري، خاطئون الرجل ثلاثة من عصره ولكن مثل هذه الحالات لا تقوم دليلاً على ذيوع ذكر الرجل في عصره ذيوعاً يطبعي الذي يكافىء خصائصه

ان من هذه الأدباء من وقفت في وجه الرجل وذيوع ذكره اجتمع فيها العامل العنصري مع العامل الديني

لكن العنصر الذي عاش فيه الخليل وان كان مبرز شاعريته وبجلى فنه ، الا انهُ كان يقف في سبيل ذيوع اسمه ، والاعتراف بفضله على فن الشعر ، لاسباب يتصل بعضها بشخص الخليل ، والبعض الآخر بما يماشيها من اتجاهات العصر

يبقى لنا ان نبحث ونحن بصدد العنصر والرجل ، ماذا كان الخليل لو لم يكن شاعراً ؟ ان من شأن هذا البحث وان كان مجدياً في اظهار نواحي الرجل الا انهُ يقوم على اساس من الفكر مجرد لا يستند الى الوقائع المحسوس . فيكفي ان يكون الخليل وجد شاعراً لنقول بأنهُ لم يكن في مستطاعه ان يكون شيئاً غير شاعر . ذلك ان طبيعة الرجل قبل ان تصنعه الاسباب جبلته بجبلة فنية تحبون بمنحاه الفني نحو الشعر . آية ذلك أنك تجد طبيعة الرجل الفنية تختار مواد الشعر من الطبيعة الخارجية وتسيطر عليها بفكرة متسقة مطردة جزئياتها ، حتى تستوعب الحياة وتطبعها بطابعها الخاص ، ممثلة اياها في صورة العصر التي ادركت نفسها في شخصه

فمن خلال الرأي ، البحث في الرجل وفي شيء يكون لو لم يكن شاعراً ، لان طبيعة الرجل الفنية لا تجعله غير شاعر

— ١ —

يقول الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب المصرية :

«مطران تأثر بالشعر القديم ناهض مع المجددين وهو قد سلك طريق القدماء ثم تعجبه فأعرض عن الشعر ثم اعتاد قضاء اليه ومايل ان يعود اليه مجدداً لا مقلداً . وهو ينبئك بأنه يعرض عليك في ديوانه شيئاً من شعره القديم تتبين به مقدار ما وصل اليه من التجديد وهو متواضع لا يزعم انه بلغ من التجديد ما يريد وانما يترك ذلك للذين سيأتون من بعده . وهو شجاع لا يعتذر ولا يتلطف وانما يعلن ثورته على القديم وانقباضه بالعصر الذي يعيش فيه وحرصه ان يلائم بين شعره وبين هذا العصر . وهو معتدل فهو لا يرفض القديم كله وانما يحتفظ بأصول اللغة وأساليبها في حرية كما يتأثر القدماء في اطلاق فطرتهم على سجيتها ، بكظم فطرته ولا يشبهها بالاستار الخداعة الخلابة . وهو في له في جمال الشعر مذهب ان لم يكن

(١) [illegible] في تقاليد الشرق الادنى — مجلة مجمع الفكر — استانبول م ٣ ج ٤ ص ٣١٠ —

٣ وجريدة برافدا بموسكو — مبحث التقليد وظاهرة الجود في مصر الحديثة — عدد ٤ — ١ — ١٩٣٩

واضحاً كل الوضوح ولا مبتكراً كل الابتكار فهو على كل حال مذهب قيم لانه يحل شيئاً من مشكلة الشعر الفني في هذا العصر فهو يكره هذا الشعر الذي تستقل فيه الابيات وتتنافر وتتعاير ويريد ان تكون القصيدة وحدة ملتئمة الاجزاء» (١)

ولهذا يرى الدكتور طه حسين أن مطران ليس من الطبيعي ان يكون مخلداً لشريعاني امارة الشعر . لأن مذهب مطران في فن الشعر يباين مذهب شوقي . وهذا كلام ظاهره حين يصدر عن طه حسين حين كتب عقب وفاة أحمد شوقي أن امارة الشعر انتقلت بعد وفاته من مصر الى العراق . ولكنه لا يبين كيف انتقلت امارة الشعر من العراق بعد ذلك على يديه فوضعت على مفرق شاعر مصري يباين مذهبه في نظم الشعر كل المباينة مذهب شوقي . وهذا دليل آخر يتسق مع كلامنا من ان الخليل لم يحظ من أسباب عصره بما يديم ذكره

هذا وكلام الدكتور طه حسين وان كان صادقاً في عمومه لكنه ليس بكل ما ينبغي أن يقال في مطران ، إذ ينقصه الاشارة الى الطبيعة الفنية ، وهي كل شيء في الشاعر

هذا والاستاذ احمد الشايب مدرس الادب العربي بجامعة الاسكندرية يقول :

«ليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وانما هو طراز جديد في الشعر العربي . هو شاعر العقل والشعور جميعاً . ولقلما نجد هذا النوع بين سابقيه ومن حاول بعد المعاصرين ان يكونه . مطران فيما نرى عالم وأديب معاً . وهو اذن ناقد ، واذا كان لا بد من الافصاح فيجب ان نلاحظ ان اتجاه التقدمي — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على رجاحة الشعر الحديث — ليس متحد المزاج والطبيعة وان تجاذبهم في الموهبة والمنهاج ، فهم شعراء كبار يتفوق في ذلك ولكنهم يتمايزون بعد ذلك في كل شيء او في اغلب الاشياء . فاذا كان لحافظ سرعة البديهة وسهولة النفس وصفاء المبارد وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقي براعة القص ، وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وان لمطران صحة الفكرة ، ووحدة القصيد ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة ، وسماحة الباطن وسر الاخلاق . ومعنى هذه المرة الثانية ان مطران ليس شاعراً فقط او هو شاعر من هذا الطراز النقي ، هو عالم أديب صياغة بديعة وشعور صادق ، وخيال عام ، وأفكار سديدة . فاذا التمست عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمسه عند مطران والتمس عنده الثقة العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة او غذاء الذهن جميعاً . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة امام شكري وأبي شادي والعقاد والمازني وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة» (٢)

وهذا كلام صادق إذ هو يحدد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية ولكن ينقصه الكلام عن معنى الطبيعة الفنية عند مطران . الا انه من وجهة عامة يمكن ان يقال انه توفق أكثر من الدكتور طه حسين في تحديد المناحي الشكلية لاتجاهات مطران الفنية

والاديب أسعد الكوراني يقول :

«من الانصاف للادب والتاريخ ان نقول ان خليل مطران رأس حركة جديدة في تاريخ الآداب العربية ، وانه قد حول مجرى الشعر العربي من الذاتية الى الموضوعية فكان شعره متحد الاجزاء كامل الوحدة» (٣)

---

(١) طه حسين : حافظ وشوقي ، ص ١٧ (٢) احمد الشايب في ابولو ، م ١ ج ١٠ ص ١٣٠٢ — ١٣٠٦
(٣) اسعد الكوراني في الكلمة ، م ١٣ (تشرين الثاني وكانون الاول) حلب ١٩٣٨ ، ص ٤٩٦

وهذا كلام يتفق مع سائر ظواهر الناحي الشكلية التي عددها الاستاذ الشايب من اتجاهات مطران الفنية . ولكن ينقصه الكلام عن وجه قيام شاعرية مطران من الوجهة الموضوعية التي رآها

ولعل الانصاف ان نقول هنا ان كلام الاستاذ الشايب والاديب الكوراني من أدق ما قيل في مطران . وبعد ذلك تبقى بعض آراء وان كانت لها قيمتها في اظهار بعض النواحي الشكلية فن مطران ، الا انها تقصر من جهة اخرى في الدلالة على روحه . من ذلك قول الدكتور ابراهيم ناجي

« الشعر عنده رأي واقناع وخيال وصور . وشعر عنده موسيقية اللفظ ، والثلاثة الباقية : الاقناع والخيال والصور غير موجودة ، ومطران لا يعنى بالموسيقية كثيراً ، ويعنى بالخيال والصور » . « غنى بن الخيال واطلاق العنان للتصورات العالية لا للاستعارات والكنايات اللفظية كثير في شعر مطران ، يزخر به ويغرق في آفاق هذا » . « ومطران في شعراء العربية ممتاز في هذا : له قصائد منفردة منقطعة النظير في الصور وسمو الخيال الى الاوهام . خذ مثلا قصيدة « فتاة الجبل الاسود » ، او قصيدة « الجنين الشهيد » وانه في الصور . تجد ان موضوع بطاقم الخلود » (١)

ولم يكثر احمد زكي ابو شادي رأي في شعر مطران له قيمته ، فهو يقول :

« الميزة الخاصة بشعر مطران لغزارته الشاملة للجيد ، بحيث لا تجد اي موضوع — مهما كان تافهاً في ظاهره — صالحاً لان يكون مادة شعرية تبعاً ، فالشاعر الحقيقي هو الذي يخلق الموضوع الشعري ، وليس الموضوع هو الذي يوجب الشاعر » (٢)

وفي هذه العبارة الموجزة يكشف ابو شادي عن الطبيعة الفنية لمطران . وهو بذهب بعيد مناحي شاعرية مطران من الناحية الشكلية ، وهو موفق في هذا التحديد ، الا انهُ لا ينتهي به الى بيان وجه قيام شاعريته من الطبيعة الفنية . وابو شادي يذكرنا موقف الاستاذ الشايب ازاء مطران

وهذا رأي لا فطون بك الجميل رئيس تحرير الاهرام في مطران يمكن ان نلخصهُ في قوله:

« شعر مطران كرسم تمثل لنا فيه تفاصيل حياة صاحبه . وان هذا ربما كان سر أكثر عامته وبعض سايه : أعني ان هذا ما جعله مبتكراً في ابراز مكنونات صدره لانه لا يصف الا ما يشعر به ولا ينظم الا عواطف قلبه أي شعوره ، ولهذا فشعره « شعر شخصي » بكل معنى الكلمة . . . لكن ذلك أحياناً يجعله غير مفهوم عند العموم فلا يقف على جليته الا من كان له المام بحياة صاحبه . فكنا نتمنى حينذاك ان نمسي خليفاً ولا نرى الا رجلا ونشعر أننا نحن هذا الرجل ، ولعل ذلك ما دعا البعض الى اتهام شعر الجليل بالضعف . ونحن في بعض قصائده كنا نرى ضياءه من خلال غيوم — غيوم شفافة لا تحجب ذلك الضياء الباهر لكنها تخفف من لمعانه — بيد أننا كنا نرى شمس العواطف لا تلبث ان تمزق أديمها فتعود تسطع بلا كاف في سماء مخيلته » (٣)

ويؤخذ على هذا الكلام انهُ يخطىء في تعيين نوع شعر مطران ، حين يقول بأنهُ « شعر شخصي » والواقع عكس ذلك فشعر مطران غير « شخصي » subjective — لانهُ وان كان ذوب نفسه فانهُ

---

(١) ابراهيم ناجي في أبولو م ١ ج ٤ ص ٣٥٥ — ٣٥٧ (٢) أبو شادي في اصداء الحياة — الاسكندرية ١٩٣٧ ص ٦ — ٢٥ وعلى وجه خاص ص ١٣ و١٥ (٣) أنطون الجميل في الهلال م ١٦ ج ٩ (يونيه ١٩٠٨) ص ٥٣١ — ٥٣٩ وعلى وجه خاص ص ٥٣٨

يلبس صورهُ من الصيغة لا من النص . فالشعر وان كان عند مطران ذوب النفس الا انهُ موضوعي objective لانهُ يلبس صوره من عالم الموضوع . ويكاد يمثل لشعر شيخاً بتهاويله وتصاويره ومبالغاته . وهذا ما انتبه لهُ الدكتور ابو شادي [1] فيما كتب عن مطران

من هنا نرى أن الآراء تكاد تكون قد أجمعت على تقديم مطران على زميليه شوقي وحافظ من الوجهة الفنية [2] على انهُ رغم هذا لم تعرف مزاياه معرفة تامة من معاصريه . ولم يذع ذكره الذيوع الذي يتكافأ ومزاياه وخصائصه وبعد ذلك يبقى أدب الرجل أمام الأجيال القادمة كاكبر محاولة جرت في تاريخ اللغة العربية بالانتهاء بالشعر العربي الى مكان من الشعر العالمي يناسب مقام العرب في التاريخ واللغة العربية بين اللغات

— ٢ —

تكاد تكون كل أخبار خليل مطران وتاريخ حياته ، معروفة صديقها لأصدقاء الرجل وخلانهِ وهم كثر من الأحياء المعاصرين . الا ان هذه الصحائف لم تسجل . وما سجل منها يقف عند حدّ التعميم ولا ينتهي الى حدّ التفاصيل التي تربط بين حياة الرجل وشعره . ونحن يمكننا ان نرد جميع المصادر التي لها صلة بحياة الخليل الى ثلاثة أصول : ما كتبه الخليل عن نفسه ، وما رواه معاصروه عنهُ ، وما نطق بهِ شعره من وقائع حياته

اما عن الأصل الاوّل . فلم يكتب مطران شيئاً يذكر . وقد سألناه مرتين أن يكتب الينا الماماً بحياته . ولكنهُ في كل مرة كان يعتذر . حتى جعلنا نولي وجهنا شطر وجهة هي أقرب الى دراسة أعلام العصور الغابرة منها لأحد النابهين من المعاصرين . وقد يكون معذوراً في عدم كتابته . ولكن ما عذره حيال نفسه وأدبه ازاء الأجيال القادمة ، وهو يفوّت الفرصة لراغب في دراسة حياته على وجه من التحقيق العلمي . على أنهُ بعد ذلك هنالك بعض فقرات تتصل بحياة الرجل ترد عرضاً في بعض ما كتب ، لو جمعنا بعضها الى بعض لم تدلّ على صورة واضحة منسجمة عن حياة مطران ، الا أنها بالإضافة الى ما رواه معاصروه وما يمكن ان يستخلص من شعره تعطيك صورة عمومية عن حياة الرجل ، ان حاولت ان تنزل منها الى التفاصيل ، لم تأمن الزلل والوقوع في اخطاء الاستنتاج

ونحن يمكننا ان نلخص القول هنا بخصوص الأصل الثاني من المصادر التي عرضت لحياة مطران ، بأنهُ ليس من المصادر التي تحت أيدينا عن حياة الشاعر ونشأته الا بضعة أسطر كتبها الدكتور احمد زكي ابو شادي عام ١٩١٠ في مجلة حدائق الزهور ثم ضمنها فصلاً من كتابه

(١) أبو شادي في اضواء الخيال — ص ١٨—١٩ (٢) أنظر كذلك النقاد في شعراء مصر وبيئاتهم في ذيل الكتاب

« اصداء الحياة » . وهذه السطور يمكن ان نوجز القول فيها فيما يلي

ولد خليل مطران سنة ١٨٧٢ ، فهو لم يتجاوز الاربعين من عمر حياته ، ومع ذلك فهو مكثر منجب ، وقد أنشأ « المجلة المصرية » وهو في الثامنة والعشرين . وأثمر اثره الاول من ( ديوان الخليل ) بعد ذلك بعشر سنين ثم يجيء الا بحموى الا نظرة من فيض شعره . وقد مر في صحيفة ( الاهرام ) وأسس الجوائب المصرية ، وله كتاب « مرآة الايام » وهو سفر شائق في التاريخ العام . فحياة كلها نشاط ادبي »(١)

وانت كما ترى في هذا الكلام ، التعميم يغلب التخصيص . وماذا يفيدنا هذه السطور في معرفة حياة الرجل . على أننا نذكر لصديقنا الصحافي المعروف توفيق حبيب الذي يكتب زاوية هامش الصحافي العجوز في ( الاهرام ) بعض الكلام عن مطران ، حدثنا به عصر يوم الاثنين ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٣٨ في مجلس ضمّ معنا الدكتور احمد زكي ابو شادي والأستاذ ساجي الكيالي محرر مجلة الحديث الحلبية ، نذكر منهُ هذا الكلام : —

« نشأ خليل بك مطران من أسرة نزيهة في بعلبك . وتعلم في مدرسة الحكمة ببيروت . ثم مال كثير من ابناء عصره من أهل سوريا الى الاشتغال بالتجارة فخرج من بيروت وهو شاب ليسافر الى تونس ومنها الى أوربا للتجارة . الا أنه مني بالاخفاق في محاولته هذه ، فرجع الى مصر في طريقه الى بيروت ، وتصادف ان كان يوم رسوه الى الاسكندرية يوم وفاة سليم بك تقلا . فسمع بخبر ، فجلس وكتب مرثاة للرجل . وخرج مطران مع من خرجوا لتشييع جنازة الفقيد ، وبعد ان ووريت جثته في التراب ، وقف مطران فحسن من وقف يلقي مرثاته . فبلغ من دهشة الجميع ان سرت أقدام المشيعين للجنازة وقد التفوا حول الشاب الشاعر وقد لوّاهم الدهشة والعجب

وكان من حسن تشييع جنازة الفقيد أخوه بشارة تقلا باشا صاحب جريدة ( الاهرام ) ، وطلب من الشاعر الشاب بعد ثلاثة ايام من مراسيم الجنازة ان يمرّ به في ادارة الاهرام . فاعرف من أمر مطران ما كان ، ومن شأن أسرته مقامها حتى عمل على جعل خليل مطران نائباً عنه في القاهرة — حيث كان هو في ذلك الحين بالاسكندرية ، حيث كان يصدر عنها صحيفة « الاهرام » يومئذ — وتعرف مطران لكبار رجال مصر في القاهرة . ومرعان ما احتل مكانة بارزة في هيئة المجتمع المصري بأخلاقه الكريمة وسجاياه الطيبة وأدبه العالي . وكانت له في الاهرام كل أسبوع مقالة ، في شأن من الشؤون السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الادبية . وكان لمقالة شأن كبير عند الادباء وصفوة القراء . وكان لا يمس بها في ذلك الحين مقال لكاتب آخر غير ما كان يكتبه دياب بك في صحيفة المؤيد

وحدث ان انتقلت صحيفة « الاهرام » عام ١٨٩٩ من الاسكندرية الى القاهرة ، ويرغب صاحبها بشارة تقلا باشا في ان يجعله رئيساً لتحرير غير انه أبى ورفض ، حتى يحفظ لنفسه حريتها في التفكير والعمل ولا يكلفها تبرد هذا العمل . وظل مطران يشتغل محرراً ممتازاً في الاهرام . وكانت موارده من الصحافة كثيرة ومن أشغاله الخارجية غير قليلة ، الا أنه على كثرة دخله كانت نفقاته كثيرة ومردّ ذلك الى بسط يده للمعوزين والذين كانت تهم الاحوال من الادباء

كان خليل مطران يقيم في هذه الفترة من حياته في « أوتيل الخديوي » Khedivial Hotel وقضى ساعاته في محل مدام باربيه Madame Barbier التي كانت تقوم تحت الفندق ، والتي تقوم اليوم على أنقاضها محلات « سليم سيدناوي »

وفي عام ١٩٠٠ أنشأ مطران مجيفة نصف شهرية هي « المجلة المصرية » وكانت تصدر عن الادب المحض ، وبذلك كانت أول مجلة مختصة بشؤون الادب في تاريخ الشرق . وقد صدر منها أربعة مجلدات ، نجد فيها جميع شعر اسماعيل صبري وجانباً كبير من شعر أحمد شوقي . وكان أكابر كتاب العربية في مصر يساهمون في الكتابة فيها ، نذكر منهم الخوري جورج مطران الذي كان يتناول المواضيع القصصية والتجارية .

---

(١) أصداء الحياة — ص ١١

ومن الشعراء الاحياء الذين نشروا فيها شعرهم ابراهيم رمزي واحمد رمزي وعبد الرحمن جبعي

وحدث في ذلك الحين ان أصدر جندي بك ابراهيم صحيفة « الوطن » جريدة يومية وضم اليها بادئ ذي بدء نخبة من المحررين الممتازين ، كان منهم مع مطران وابراهيم سليم النجار ، غير ان ضعف الصحيفة جعل مطران ينصرف عن التحرير فيها

وفي عام ١٩١٠ أنشأ مطران مع أخيه جورج صحيفة « الجوائب المصرية » وهي صحيفة يومية اشترك في تحريرها الشيخ يوسف الخازن . الا ان تقدم مطران وأخوه جورج في ادارة الجريدة من الناحية الاقتصادية تقدماً ، جعلهما يعلنان أمر ادارتها من الناحية المالية الى جماعة من الناس واحداً وراء واحد ، نذكر منهم سعيد بك حسني . وكان نتيجة عدم اشراف الاخوين على شؤون الجريدة المالية ان غلبت خسائرها مكاسبها فاضطر خليل مطران ان يحجبها

على انه يمكن ان يقال أن صدور جريدة تعايدة لاتميل مع الاحزاب كان من أسباب القضاء عليها ، لان كونها تعايدة ان ارضى الكبار ، فانه لن يرضي عامة الناس وهم قراء الصحف وعمادها

في تلك الفترة أصدر مطران كتابه ( مرآة الأيام ) في جزئين وهو سفر جليل في التاريخ العام ، كما انه جمع ( مراثي الشعراء ) لسامي باشا البارودي في كتاب وفاء للرجل

وقد كتب مطران في ذلك الحين جملة روايات تمثيلية ، كما بدأ في ترجمة مسرحيات شكسبير من الفرنسية الى العربية ، الا أن ثمرة ترجمته لم تبد الا بعد الحرب العظمى

وخليل مطران من أرسخ الناس قدماً في الادبين الفرنسي والعربي ، يعرف الادب العربي القديم كأحسن المتخصصين فيه . كما أنه مطلع على الادب الفرنسي كأحسن اساتذته اضطلاعاً بدراسته . على أن مطران متعدد النواحي ، فهو فنان ضرب في الشعر بسهم وافر ، حتى انك لاتجد غريباً له في اتجاهاته الفنية في الشعر ، لامن معاصريه ولا من الذين نشأوا في الجيل الذي أتى بعده ، كما انه صاحب فن في الكتابة المسرحية وشؤون التمثيل ، وله عدة مسرحيات من أروع النظم المسرحية العربية . وهو الى هذا صاحب اقتدار في فهم شؤون التجارة والمال . وقد اشتغل في التجارة كثيراً ، فكسب وخسر ، وميله للاتجاهات المالية يجعل له دربة في الشؤون الاقتصادية ، حتى لقد كلف وضع البرنامج التأسيسي لبنك مصر . ومن مظاهر اتجاهاته الاقتصادية ترجمته مع حافظ ابراهيم كتاب « المرجز في علم الاقتصاد » وهو كتاب ليس لحافظ ابراهيم منه غير الاسم ، قام بترجمته كله مطران . هذا ومن مناحي مطران المتعددة كلها بالمسائل الزراعية ، وهذا الكلف تظهر آثاره في صحيفة « المجلة المصرية » حيث كان يفرد فيها باباً خاصاً للشؤون الزراعية . وهذا الكلف انطلاء مقنونة وكفاءة جعلته يؤسس النقابة الزراعية المصرية . وهو الآن يشغل منها منصب السكرتير المساعد . على اننا اذا ذكرنا كل هذه المناحي لمطران في الشعر والحركة المسرحية وعلم التجارة والمال وشؤون الزراعة لجب الا ننسى ناحية مهمة من مطران تتصل بحركة التمثيل المسرحي الشيء الذي يقوم باتجاهه الفني لكتابة المسرحية . ومن مظاهر نشاط مطران في هذا الميدان أن أسس دار التمثيل العربي قبل الحرب ، كما شغل رئاسة الفرقة القومية المصرية للتمثيل

والواقع انه لايوجد اليوم من الاحياء من هو في نشاط مطران ، وان كان يذكرنا بنشاطه تلميذه الدكتور احمد زكي ابو شادي بنواحيه المتعددة : في البكتريولوجيا والشعر والادب والنحالة والصناعات الزراعية وتربية النواجن وشؤون الاجتماع والاقتصاد

ومما يذكر عن مطران ان المذكرات التي كان يضعها رجال المال والاقتصاد في مصر كانت تعرض عليه ، كما كانت المذكرات القانونية التي يضعها رجال القانون ، وفيها مساس بالشؤون المالية ، تعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة . نذكر من هذه المذكرات التي مرت تحت يده المذكرات التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي عند السير بروبيت

هذا واشتغال مطران بالادب وكونه رجلا اجتماعياً دفعه لحضور كثير من مجالس الانس والطرب ، وكان هو من هذه المجالس صدرها بأدبه الجم وبروحه الخفيفة وبظله الوارف . وقد اندمج في كثير من الحالات الى وضع الكثير من الاغاني والطقاطيق البلدية لتغنى في هذه المجالس . ولو جمعت هذه الآثار عن كل ما أحدثه مطران في عالم الادب والشعر من الأثر ، لكان من ذلك تراث قيم للغة العربية

وقد كانت مطران السياسية إن كانت تجعله بعيداً عن كثير الاحزاب المصرية ، فقد كان يحس تماثل الحقوق وتقارب مقدماتها نظرياً ، ومن هنا كان اخلاصه لها . ومن مظاهر هذا الاخلاص تعاطفه الروحي في مبدئها ، هذا التعاطف الذي كان يؤمن به [illegible] على ان الكثير من الأسباب وصلات مطران بمصريين [illegible] جعلته فيهم موالاة الجميع في بعض ما عرض مصر ولا سيما في الايام الاولى من عهد الاحتلال .

ومطران من أحسن الناس حظاً ، لأنه يعبر الناس ، ويصل على ما فيهم بكل ما يُرضي من ثروة ، وهذه هي نقطة التصادم ، على أنه قد عباه بعض الناس ، لجهله بعد الناس عن الاعلان عن اعمال البر التي يقوم بها . وهذا راجع الى كرهه الاعلان عن نفسه . وقد يكون ذلك من اسباب خمول ذكره بعد الحرب العظمى حيث انقطعت الصلة بين الفترة التي سبقت الحرب والفترة التي جاءت بعدها ، والتي لم يظهر فيها مطران نشاطاً يناسب نشاطه في الفترة التي سبقت الحرب الكبرى !

هذه سطور وجيزة عن حياة مطران وهي ان كانت أشمل ما وقفنا عليه عن حياة الرجل من أحد معاصريه ، فهي تقف عند حدّ التعميم ولا تنتقل من حياة الرجل الى الجزئيات التي تفهمنا اياه عن حقيقته . ثم عندك خبرات في هذا الكلام ، اذ لا خبر لنا عن صباه ولا عن دراسته ولا عن عهده ولا عن سير أسرته التي نشأ في ظلها وتنفس ، ولا عن شيء من أمور معيشته وحياته الخصوصية ، تلك الأشياء التي لا بد منها لبحث جدّي يراد به الترجمة لحياة انسان . على ان هذه الفجوة في الاخبار والفجوات التي تخللها كان يمكن ان تعوض وتملأ لو ساعدنا مطران في تدوين تاريخ حياته باحاديثه المعلومة التي طلبناها منهُ . ولكن اعتذاراته جعلتنا في موقف حرج من الدراسة . لا يمكننا ان نكون قد مضينا منها الى هذا الحدّ وهكذا لم نجد بدّاً من ان نكتفي بهذه الاخبار الاضافة الى أقواله وأقوال بعض معاصريه التي لها اتصال او دلالة على حياته والتي ترد عرضاً في كتاباته او كتابات معاصريه ، والرجوع اليها في كل ما عرض من المسائل التي استوقفنا من المواضع حتى نأتي على الهيكل العظمي لتاريخ حياته ضوءاً وهو الهيكل الذي تكوّن لنا بعد من هذه الأخبار ، وبعد ذلك لنا ان ننفخ فيها الحياة من شعره

— ٣ —

يقول انطون بك الجميل

« يمكننا ان ندرس حياة خليل مطران شطراً شطراً من مطالعة ديوانه سطراً سطراً . فان شعر الخليل رسم تمثلت لنا فيه كل اطواره وجوانبه وارتسمت في صفحاته كل عواطف قلبه » (١)

وهذا كلام اختلط فيه جوانب من الحق مع جوانب من الباطل . اما جوانب الحق فاعتبار ان حياة مطران الشعورية متمثلة في شعره أحسن تمثيل من حيث ان شعره ذوب نفسه وعصارة قلبه ، اما حياته المعاشية فلا يمكنك ان تخلص بها من شعره ، والرجل في هذا كالشعراء الإفرنج من الصعوبة في مكان ان تخلص من شعرهم بتاريخ حياتهم ، لأن الموضوعية في شعرهم تطغى على الذاتية فيهم حتى تتلاشى فرديتهم ، فلا تدور على اغراضها شعرهم . وهم في هذا عكس شعراء

(١) الهلال ، م ١٦ ج ٩ ( يونيه ١٩٠٨ ) ص ٥٣١ — ٥٣٢

العرب الذين تدور شعريتهم حول الأغراض الذاتية من حيث يتلاقى كل شيء فيه وفي حياتهم. فأنت لا تستطيع ان تخلص من شعر المتنبي او ابن الرومي الا بمراجعات الشعر العربي بتاريخ حياتهما [1]. فانك واجد في ذلك كل الصعوبة مع الخليل. من هنا نرى ان شعر خليل مطران في حد ذاته وان اعتبر مرجعاً عظيماً في فهم حقيقة حياة الرجل الشعورية، فانهُ في ذاته ليس بالشيء الذي يذكر في دلالته على شؤون حياته المعاشية. الا أن شعر مطران بالاضافة الى ما يجمع لدينا من المعلومات والاخبار عنهُ يمكن أن يعتبر شيئاً لدراسة حياة الرجل، وملء الفجوات التي بين الاخبار المتجمعة عنهُ، ونفخ الحياة في الهيكل العظمي لتاريخ حياته. وهكذا نميز معنا جوانب الحق من جوانب الباطل في كلام انطون بك الجميل.

ودلالة الشعر الصحيح على الحياة الشعورية لا تحتاج الى اسهاب لأن الشعر ان كان ذوب النفس، فهو مظهر ما يختلج في الوجدان من نبضات الحياة وخلجات الشعور. من هنا لا نرى في قولنا ان شعر مطران ذو دلالة على حياة الرجل الشعورية ما يحتاج الى الاثبات. فحسبنا أن يجعلنا في قصيدته عن بعلبك — مثلاً — تمثل حياته الشعورية في سباه حين يقول:

نزقاً يفنن [2] غرّاً لعوباً لاهياً عن تبصّر واعتبار
مستقلاً عظيمها مستخفاً ما بها من مهابة ووقار
تتبارى كأنّها فراشا روضةٍ مالها من استقرار

كما أنهُ يجعلنا تمثل من شعره حياته الشعورية وقد كبر وخاض معترك الحياة، وذلك حين يقول

في محرةٍ لا ألس فيها للغريب ولا صفاء
تتقاذف الآفاقُ بي تقذف العواصف للهباء
وتحيط بي لجج الصروف فمن بلاء في بلاء

وهكذا يمكننا ان نتنقل في شعر مطران ندرس منها أطوار حياته الداخلية في تنبضها، ومظاهر حياته الوجدانية والشعورية

وانت قد تجد من الشعراء من يجعلك تركب الصعب في قراءة شعره حين تريد ان تستدل منها على حياته الشعورية. ذلك من حيث تبلغ فيه الصنعة حداً تجعله يحاكي صدق العاطفة. على ان هذا الحال وان كان معروفاً في شاعر مثل البحتري يجعلك تحترس في دراستك له، فانهُ متخالط في شيء من شعراء العربية، ومن هنا جاءت صعوبة دراسة حياتهم من شعرهم، اللهمّ الاّ الذين

(١) انظر عن المتنبي: بحوث محمد شاكر في دراسته، المقتطف م ٨٨ ج ١ (يناير) ١٩٣٦ وهي خير دراسة كتبت عن المتنبي. وانظر عن ابن الرومي دراسة عباس محمود العقاد، ص ٧٦ — ٢٦٢

(٢) أي بين آثار بعلبك

بلغ فيهم الاحساس الشعري حداً يجعلهم في عصمة عن الارتفاع بالصناعة الى صور لا تمثل شعورهم ولا تثير لها في وجدانهم قيمة

ومطران من حيث كون شعره ذوب نفسه وخلاصة ما يضطرب في وجدانه يجعلنا في حل من التحرز عند دراسة حياته الشعورية من شعره. ذلك ان الرجل لا يقول الشعر الا عن وجدان صادق، وعبقريته وعبقريته لا تعتمد على جودة الصياغة وقوة الصناعة التي يرتفع بها الى محاكاة العاطفة، انما يقوم على فيض الشعور، وشعور الرجل يتلوّن بصلاته الاجتماعية بالناس الذين يقول شعره فيهم في الظروف السارة او الحزينة.[1] وهو في هذا يمثل في تاريخ الأدب العربي لوناً قائماً بذاته. وهكذا يمكن النزول من شعر الرجل الى الحالات الشعورية التي تتشكل وفقاً لها صلاته الاجتماعية بالناس

وشعر خليل مطران ان كان في عمومه يكتنا من ان ندرس حياته الشعورية والوجدانية دراسة مفصلة دقيقة تغنينا عن تفحص الاخبار والنظر في دلالاتها الشعورية، فان هذا الشعر كما قلنا، لا يمكن ان يعتبر مرجعاً قائماً بذاته في دراسة تاريخ حياة الرجل من وجهها الناشئة على وجه من التفصيل. ومع هذا كما قلنا وسبق الى ذلك الاشارة في الامكان، بالاضافة الى ما بين يدينا من اخبار الرجل، ان نستوفي ترجمة حياة الرجل جهد المستطاع، يتداخل في هذا الاستيفاء الاستقراء والتنظر والتعرف والاستطلاع لما وراء هذه النصات الذي يحملها شعره والرجوع بها الى ما يمكن ان يتجانس في الهيكل العظمي لتاريخ حياة الرجل المتكون من الاخبار التي جمعناها عن مطران

## غايتنا

من وجهة نظر خاصة يمكننا ان نقسم تاريخ حياة مطران بالنسبة للأطوار التي لبسها من عصره الى ثلاثة ادوار: تبدأ الأولى من ميلاده وتنتهي باستقراره في مصر. وتبدأ الثانية من حيث ينتهي الدور الاول وينتهي بالحرب الكبرى. ويبدأ الدور الثالث يوم وضعت الحرب أوزارها وهو مستمر الى يومنا هذا

اما عن كون هذا التقسيم هو التقسيم الطبيعي. فذلك ما لا نشك فيه، لأن هذه القسمة تمثل من جهة مراحل نشاط الرجل، ومن جهة اخرى تكامل شخصيته وظهور فنه. فالطور الاول هو طور النشوء، والطور الثاني هو طور النضوج، والطور الثالث هو طور التكامل والتمام

وسيظهر من بحثنا لحياة الرجل من سبل التحقيق الذي سنأخذ انفسنا به، ان هذا التقسيم منهجي وانه طبيعي في هيكل بحثنا الذي سنقوم به

(١) أبو شادي في أصداء الحياة، ص ٢٤ — ٣٥